رنّ جرس هاتف الإسعاف الفوري.. أجاب أحد موظفي وحدة السيطرة المركزية، المتصل كان امرأة تتكلم بصوت مرتجف قائلة "نحتاج إلى سيارة إسعاف رجاءً لان شقيقتي مريضة، وبعد أن تسلم الموظف كل المعلومات الخاصة بحالة المريضة وكتب عنوان بيتها الكائن بالكرادة، بدأ علي الموظف الآخر في الغرفة نفس المناداة؛ على السيارة المطلوبة أن تتوجه إلى منطقة الكرادة هناك حالة مرضية، أسرع محمد المسعف وزميله السائق ياسين المسؤولَين في ذلك اليوم عن عجلة الإسعاف المذكورة، وركبا السيارة في رحلة في شوارع بغداد تشبه المغامرة وبعد اجتيازهما الزحامات المرورية والسيطرات الأمنية التي لا تعد ولا تحصى.

موكب حماية أحد المسؤولين يتسبب بوفاة مريض!

الإسعاف الجوي حلم بعيد المنال

□ بغداد/ دعاء آزاد
□ عدسة/ أدهم يوسف

وبعد طريق طويل وشاق وصل المسعفان إلى مكان المريض، سأل المسعفان: أين المريضة ،أجابهم عدد من جيرانها الذين كانوا يتجمعون بالقرب من بيتها: المريضة في الطابق الرابع، مشيرين إلى العمارة التي أمامهم، قرع طاقم الإسعاف الباب فتحته شقيقة المريضة قائلة :(تفضلا هي هنا نائمة)، جهز المسعفان "السدية" ودخلا غرفتها وبعد لحظات ساد الصمت، إذ نظر المسعفان لها باندهاش شديد متفاجئين، تبادل محمد وياسين النظرات ولم يجدا كلاما يعبر عن الموقف، إذ اكتشفا أن المريضة تزن ٢٥٠ كيلو غراما، وهذه المعلومة لم تذكرها شقيقتها التي اتصلت بالإسعاف، وفي ذلك الوقت على المسعفين أن ينزلاها من الطابق الرابع إلى الأرضي مع عدم وجود مصعد!! لم يكن أمام محمد غير حل واحد الا وهو أن يتصل بدائرة الكهرباء لترسل لهم رافعة لان المريضة لا تستطع نزول السلم ،وبعد انتظار ليس بالقليل وصلت الرافعة وتم إخراج المريضة من شرفة الشقة ووضعوها في سيارة الإسعاف دون سدية! إذ افرغوا السيارة لأنها لا تكفيها وأوصلوها إلى المستشفى ، كانت هذه إحدى مغامرات المسعفين في محاولاتهم إنقاذ حياة المرضى.

تاريخ الإسعاف

بدأ عمل الإسعاف في العصور القديمة مع استخدام عربات الخيل لنقل المرضى وظهرت أول سيارة إسعاف في العالم في مدينة بون في ألمانيا ، وتطورت سيارة الإسعاف لتكون حاجة ضرورية لنقل المصابين في جميع أنحاء العالم وكانت مزودة بأحدث التكنولوجيا مع كل مرحلة من التطورات البشرية .

الإسعاف الفوري في العراق أو كما يسميه الخبراء (القلب النابض) لوزارة الصحة، تأسس عام ١٩٧٥ وكان يتألف من ١٢٠٠ سيارة إسعاف،لكن بعد الحصار الذي فرض على العراق بدأ العدد يتناقص حتى وصل إلى سيارتين فقط في بغداد؛ واحدة لجانب الرصافة، والأخرى لجانب الكرخ. الإسعاف الفوري تابع إلى دائرة العمليات والخدمات الطبية المتخصصة ويقسم إلى ٤ قواطع، كل قاطع مسؤول عن جزء من بغداد، ويقسم إلى عدة مراكز تغطي عموم مناطق العاصمة.

في اليوم العالمي للإسعاف الفوري قرر طاقم (المدى) أن يدخل الى عالم هذه الشريحة المهمة التي تصارع الوقت، لتنقذ حياة المرضى والمصابين، وما أكثرهم في العراق الجريح ، دخلنا إلى احد قواطع الإسعاف لنكتشف خبايا هذه المهنة، متوقعين أن نرى مظاهر الاحتفال بعيدهم السنوي لكن لم نجد أي مظهر للاحتفال لتزامنه مع وفاة الرسول محمد (ص)، وجدناهم كخلية نحل دائمة الحركة والعمل، تبدأ من الصباح حتى صباح اليوم التالي، من دون توقف على الرغم من كثرة المعوقات.

معاناة لا تنتهي

يصف لنا مدير قاطع الرصافة للإسعاف الفوري عبد العال كثير عمل الإسعاف في بغداد بأنه معاناة لا تنتهي، قائلا: " تبدأ المعاناة أولا من سباقنا مع الوقت لأنه أهم عنصر في عملنا لكن في ظل الزحامات والطرق المغلقة والكتل الكونكريتية والسيطرات الأمنية الكثيرة قد نتأخر في الوصول إلى المرضى، إذ أن الدقيقة الواحدة قد تكون سببا في أن يخسر المريض حياته، وبيّن: أن سوء أرضية الشوارع قد تؤثر أيضا في طريقة سير سيارة الإسعاف، وبالتالي تؤثر في حالة المريض.

وعن معاناة الإسعاف أوضح: نعاني قلة مراكز الإسعاف، معللاً ذلك بصعوبة الحصول على أراض في مواقع مناسبة لبناء مراكز إسعاف، وإن حصلنا عليها فأنه سنتأخر في تسلمها بسبب الإجراءات الروتينية الطويلة، وتابع: عمل الإسعاف في بغداد عمل شاق جدا في ظل عدم تعاون السيطرات الأمنية وغياب وعي المواطن خاصة في أطراف بغداد، إذ انه لو مات المريض- لا سمح الله - فإن المسعف سيلاحق عشائريا ، ومن جهة أخرى هناك مشكلة قلة كوادر الإسعاف والسيارات وقدمها وبدائية أدواتها!

لا توجد قوانين تحمي المسعف

فيما طالب عدد من المسعفين بتشريع قانون يحدد ما هو عمل المسعف، إذ يقول ليث (مسعف) "لا يمكن أن نعطي المريض أكثر من الإسعافات الأولية البدائية لأنه لا يوجد قانون يسمح بمعالجة المريض إذا اقتضت الضرورة، ونحتاج إلى قانون يحدد ما هو لنا وما هو علينا ،وأضاف: الأدوات التي لدينا ما زالت هي الأخرى بدائية في وقت وصل فيه الإسعاف الفوري في العالم إلى إجراء عمليات في سيارات الإسعاف .

أما احمد (مسعف) يقول "مرتباتنا لا تضاهي المجهود الذي نبذله نحن نعرض حياتنا للخطر في كل لحظة خاصة في الانفجارات المزدوجة التي تحدث بالتتابع، ولدينا أكثر من ٣٠ شهيدا، وضعف هذا الرقم جرحى الذين أصبحوا معوقين ولم تعوضهم الدولة تعويضا بقدر ما خسروه ، وأشار الى أن الكثير من السيطرات الأمنية لا تتعاون معنا وخاصة في الليل، إذ نذهب لجلب حالة مرضية ونتعرض للتفتيش وعندما لا يجدون مريضا في السيارة يتهموننا بالكذب ولا يصدق كثير من رجال الأمن أننا ذاهبون لجلب الحالة، ولا يتفهمون طبيعة عملنا وأن كل دقيقة تمر يدفع ثمنها المريض.

إحدى السيطرات أفقدت إنسانا حياته

ويعود عبد العال ليخبرنا عن قصة مؤلمة - في صراعه مع الوقت - حدثت معه في ٢٠٠٧ إذ يقول" ونحن في طريقنا لإيصال مريض مصاب بذبحة صدرية إلى احد مستشفيات بغداد مرّ موكب أحد المسؤولين، فأوقف رجال الأمن السير، وحاولنا إقناع السيطرة بأن يسمحوا لنا بالمرور لأنها حالة طارئة، لكنهم رفضوا وبعد مرور ٢٥ دقيقة توفي المريض. ويبين عبد العال أن تلك الحادثة لا تفارق ذاكرته.

الانفجارات المزدوجة

المسعف مخلص والسائق علي هما آخر ضحية قدمها الإسعاف الفوري، إذ تعرضا إلى حادث إرهابي أثناء مرابطة لهما في جسر ديالى في الزيارة الأربعينية الأخيرة، إذ انفجرت عبوة ناسفة مستهدفة الزوار فأسرع طاقم الإسعاف لإنقاذ المصابين وفور وصولهم إلى مكان الحادث انفجرت عبوة أخرى ، ما أدى إلى إصابتهما بجروح ونقلا على أثرها إلى المستشفى ولا يزالان فيها حتى لحظة كتابة هذا التحقيق .

الرقم ١٢٢

تحرى فريق (المدى) عن وحدة السيطرة المركزية وكان على قرب من عملها التي تعد ابرز ما في الإسعاف الفوري ، لكنه فوجئ بوجود هواتف أرضية عدة مترية لا تعمل ربما لعدم وصول الهاتف الأرضي الى اغلب بيوت العراقيين، وأخرى نقالة لا تتوقف عن الرنين وشاشة (بلازمة) كبيرة تظهر فيها خطوط ملونة بعدة ألوان مع خارطة بغداد.

وحدة السيطرة المركزية: الشريان النابض للإسعاف الفوري التي تقسم إلى ثلاثة أقسام؛ الاول وحدة اللاسلكي، ووحدة المعلومات، والثالثة وحدة السلكي، وهي الأهم لأنها تستقبل نداءات المواطنين عبر الرقم المجاني ١٢٢ وهي عبارة عن ٢٤ خطاً، تعمل هذا الوحدة على مدار ٢٤ ساعة.

مدير الوحدة سعد بهية يؤكد "أن هذه الوحدة تتمتع بأحدث التقنيات التي تضاهي ما موجود في دول العالم المتقدمة والتي تساعد على تقديم خدمة جيدة للمريض، واهم هذه التقنيات الـ (GPS)، وهو نظام تتبع عبر الأقمار الصناعية يتم عن طريق مراقبة حركة سيارة الإسعاف منذ انطلاقها ووصولها إلى المريض حتى العودة إلى المركز، وهو عبارة عن شاشة (بلازما) كبيرة مرتبطة بجهاز بسيارة الإسعاف، إذا ظهرت السيارة على شاشة بالون الأخضر تعني أنها تسير، اما الون الرمادي فيعني أنها متوقفة ويستطيع موظف الوحدة ان يعرف موقع السيارة من خلال خطوط سيرها على الخارطة، وكذلك الـ (EmR) وهو نظام يستطيع فيه المسعف معرفة عدد ردهات الطوارئ الشاغرة في المستشفيات مثل (الحروق، والخدج للأطفال) وغير ذلك من الردهات المهمة وهذا يوفر لنا كثيرا من الوقت والجهد، لكن الرقم ١٢٢ يعاني مشاكسات الموطنين، وهذا ما يسبب لهم إزعاجا وكذلك يشغل الهاتف في وقت ممكن أن يحتاج إليه آخرون بالفعل لذلك عمدت الوحدة الى استخدام نظام حجب الأرقام التي تزعجهم وبذلك يحرم من الخدمة المجانية.

مشاكسات ومناكدات

ويخبرنا موظفو هذه الوحدة عن عدة مشاكسات منها "اتصلت سيدة على الرقم المجاني تطلب سيارة إسعاف مدعية وجود حالة مرضية في البيت، وسارع طاقم الإسعاف بالتوجه الى العنوان المطلوب وفور وصولنا سألنا السيدة أين المريض أجابت لا توجد لدينا حالة مرضية! إنما عمي رجل كبير في السن ويزعجني، أريدكم أن توصلوه الى بيت أخته!! وموقف آخر" اتصلت سيدة وسمعنا صوت طفل يبكي سأل موظف الوحدة السيدة عن ماذا تعاني الحالة لكن اتضح في ما بعد أنها اتصلت فقط لإسكات طفلها من البكاء"!!

وذكر الموظفون عن مواقف إزعاج أخرى "اتصل رجل بنا يطلب سيارة إسعاف اتجه المسعفون الى العنوان المطلوب سألوا الرجل أين الحالة المرضية ؟،أجابهم لا توجد حالة مرضية إنما أنا احتاج اليكم غدا كي توصلوني إلى دائرة التقاعد".

غياب العنصر النسوي

مدير الإسعاف الفوري صباح علي الصالحي أكد " أن المديرية بصدد تقديم دراسة إلى وزارة التعليم العالي لإنشاء مؤسسة تعليمية تخرج مسعفين متخصصين كي يمكننا إعطاءهم صلاحيات لان المسعفين حاليا ذوو عناوين مختلفة مثل (خريجي المعاهد ،وخريجي اعداديات التمريض ، خريجي كليات التمريض)، وهؤلاء لا يتساوون من حيث الكفاءة لذلك لا يمكن إعطاؤهم صلاحيات.

وعن تواجد النساء في الإسعاف، قال الصالحي "تكاد تكون معدومة"، مستدركا "هناك البعض منهن يقمن بمهام التدريب رغم أهمية وجوده في هذا المجال لكن يحتاج هذا الأمر إلى التشجيع من قبل المجتمع" ،أما في ما يخص طائرات الإسعاف، فقال الصالحي: إنها مجرد أفكار صعب الوصول لها إنما توجد طائرات إسعاف فقط في الجيش العراقي تنقل الجرحى، وتابع الصالحي "أطلقنا قبل شهرين الـ ٤٠٤ وهي خدمة الطبيب بالهاتف أي أن بإمكان المواطن الاتصال على هذا الرقم في أي وقت لطلب أي استشارة طبية أو نفسية مستدركا "إن هذه الخدمة لاقت استحسان المواطنين رغم أنها غير مجانية إنما هي بسعر المكالمات العادية وهذا ما قلل من مشاكسات المواطنين.

أمنيات وأحلام المسعفين

وعن أمنيات وأحلام المسعفين في عيدهم أشار عدد منهم الى: "أن يتطور عمل المسعف وذلك بتشريع قانون يحمي المسعف ويعطيه صلاحيات وكذلك أن تتطور تجهيزاتهم ومعداتهم من سيارات جديدة وطائرات إسعاف ذات إمكانات عالية تشبه ما موجود في دول العالم المتقدم، وان تضع وزارة الصحة امتيازات للمسعف كي تشجعه على الاستمرار وبذل قصارى جهده في هذا المجال الذي حسب وصفهم خطر من الناحية الطبية لأنهم في تماس مباشر مع حالات مختلة من دون معرفة تاريخهم المرضي وقد يصابوا بالعدوى من أي مريض مما يعرض حياتهم للخطر ، لان الكثير من المسعفين لا يفضل البقاء فيها ، وكذلك أن تضع الوزارة خطة لتطوير مهارات المسعفين، وذلك بإقامة دورات بشكل مستمر خارج البلاد للاطلاع على ما هو موجود في دول العالم المتقدم من تقنيات والإفادة من خبراتهم ،وان يكون في كل شارع جانب للطوارئ تمر سيارات الإسعاف من خلاله وان تتعاون السيطرات الأمنية مع المسعفين في ذلك ،وخلصوا الى أهمية توعية المواطن بألا يتدخل في عمل الإسعاف لان أي حركة بسيطة غير صحيحة للمريض ممكن أن تتسبب في شلل للمريض كما حدث في عدة حالات.

المحررة مع مدير قاطع الرصافة

مدير وحدة السيطرة

مريض ومسعف ولكن؟

العاملون في الوحدة

■ امرأة وزنها ٢٥٠ كغم يتم إسعافها برافعة!

■ عدم تعاون السيطرات الأمنية وغياب وعي المواطن